إبراهيم نصحى أستاذ الأجيال

فاروق حافظ القاضى

يصدق لقب أستاذ الأجيال بمدلوله الحقيقى على الدكتور إبراهيم نصحى قاسم ، كما يصدق عليه إلى حد كبير لقب الرائد . ذلك أنه على مدى زمنى يربو على الستين عاما تواصل العطاء العلمى المتميز لهذا الأستاذ فى مختلف الجامعات المصرية والعربية فى فرع من الدراسات التاريخية والحضارية لم يكن قد ارتاده من قبله مصرى سوى الدكتور طه حسين إثر عودته من بعثته فى فرنسا عام ١٩١٩ ، وهو فرع التاريخ اليونانى والرومانى[١] منذ نوفمبر من عام ١٩٣٤ ، وهو تاريخ انضمام إبراهيم نصحى إلى هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) إثر حصوله على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . وحتى اليوم ، لم ينقطع عمله قط فى مجال هذا الحقل الخصيب العسير فى آنٍ معا ، سواء فى التدريس أو التأليف أو النشر العلمى ، وإعداد الدارسين من طلاب الماچستير والدكتوراه ، وهم الذين يشكلون الآن ثلاثة أجيال متتابعة من الأساتذة وسائر أعضاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية والعربية . هذا فضلا عن إسهامات

---

(١) يجدر بالذكر هنا أن طه حسين عندما عاد ، عين أستاذاً بالجامعة المصرية فى عام ١٩١٩ ، وكان أول ما تولى تدريسه هو التاريخ اليونانى الرومانى ، وظل على ذلك بضع سنين حتى عام ١٩٢٥ عندما انتقلت الجامعة إلى الإدارة الحكومية فعين أستاذا للأدب العربى بكلية الآداب ، ومنذ ذلك الوقت تولى تدريس مواد التاريخ اليونانى الرومانى أساتذة أجانب تذكرهم أروقة الجامعة المصرية بالإجلال وهم : بول جراندور P. Graindor و بيير چوجيه P. Jouguet وچونز A.H.M. Jones ، وهم الذين واصلوا التدريس فى هذا الفرع حتى عام ١٩٣٤ ، حيث اتصل عملهم فى التدريس الجامعى بعملهم فى نشر البحوث العلمية الرصينة فى الدوريات المتخصصة فى مصر ، ومنها مجلة المتحف المصرى . Annales du Service des Antiquitécs de l'Egypte ومجلة الجمعية العلمية للآثار بالاسكندرية Journal de la Societé Archéologique d'Alexandrie ومجلة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية Bualletin de l'institut Francais d'Archéologie Orientale du Caire .

متنوعة فى مجال التعليم والتثقيف العام من خلال برامج وزارة التربية والتعليم ووزارة الثقافة .

ويتواصل عطاء الأستاذ فى دأب وحيوية حتى الوقت الراهن ، حيث يعمل حاليًا أستاذًا متفرغا بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وهى الكلية التى كان أول عميد لها ، ورأس قسم التاريخ بها حتى عام ١٩٦٦ ، كما يرأس فى الوقت نفسه الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وشعبة البرديات اليونانية واللاتينية بمركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس . وقد اختاره المجلس الأعلى للثقافة - وهو عضو فيه - ليلقى كلمة الأساتذة المكرمين أمام الأمة ورئيس الدولة فى حفل توزيع جوائز الدولة التقديرية فى الخامس والعشرين من مايو من العام الجارى .

كان مولد إبراهيم نصحى فى القاهرة فى الثانى عشر من مايو من عام ١٩٠٧ . وفى المدينة العريقة أتم تعليمه حتى المرحلة الثانوية فى المدرسة الملكية الخاصة ليواصل تعليمه بعد ذلك دارسًا بجامعات فؤاد الأول (القاهرة) ثم جامعتى ليفربول ولندن بانجلترا ، حيث توج دراسته هناك بحصوله على درجة دكتوراه الفلسفة فى الآثار من جامعة لندن تحت إشراف الأستاذ برنارد أشمول فى خريف عام ١٩٣٤ ، وكان عنوان رسالته هو « الفنون فى مصر البطلمية : دراسة التأثيرات الاغريقية والمصرية فى فنون العمارة والنحت » The Arts in Ptolemaic Egypt A Study of Greek and Egyptian lnfluences in Ptolemaic Architecture and Sculpture.

وعندما نشرت هذه الرسالة فى عام ١٩٣٧ على نفقة مطبعة اكسفورد اعتبرها المتخصصون إضافة بالغة الأهمية لدراسة تاريخ الفنون فى العالم القديم . وقد احتفى هؤلاء احتفاء ظاهرا بمنهج هذه الدراسة ومنهم كلير بريو وإدجار وچوجيه الذين نشروا عروضا نقدية للكتاب فى مختلف الدوريات العلمية المتخصصة فى الأعوام ما بين ١٩٣٧ ، ١٩٤١ . وكان هناك شبه إجماع من هؤلاء على أن أهم ما فى هذه الدراسة ليس فقط استقصاء كل المادة الأثرية المتاحة عندئذ ومنهج دراستها المقارن ، أو تقرير بعض الأمور المتعلقة بالتأثير الاغريقى فى العمارة المصرية لحسمها ، ومنها على سبيل المثال بيان أن تيجان الأعمدة فى عمارة المعبد المصرى فى العصر البطلمى كانت لطراز مصرى يرجع إلى العصر الصاوى وليس تأثرا بطرز إغريقية ، إنما كان الأهم من ذلك كله فى رأى هؤلاء هو منهج استخدام الآثار فى الاستدلال التاريخى .

وواقع الأمر أن فترة دراسة نصحى لموضوعه فى المجلترا صادفت وقتا كان علم الآثار فيه قد انسلخ من طور المنهج الوصفى والتجريبى الذى لاءم هذا العلم فى نشأته الأولى ، وتجاوز ذلك إلى آفاق أرحب تتناول الأعمال التاريخية والحضارية الشاملة . فالدراسات الأثرية التى أصلّت مناهجها عند نهاية القرن التاسع عشر متأثرة بالمناهج الصارمة لعلماء اللغة الألمان من ناحية ومدرسة فون رانكه الوضعية فى الدراسات التاريخية من ناحية أخرى ، قد حصرت نفسها زمنا فى معالجات جزئية . وليس من شك فى أن هذه البداية كان لها إيجابياتها بالنسبة إلى علم الآثار الذى كان عندئذ وليدا يحبو ، ومنها وضع مبادئ علم تتابع الأزمنة chronology ، والتصنيف المقارن للمادة الأثرية وما إلى ذلك . لكن الآثاريين سرعان ما فطنوا إلى أن هذا الانحصار فى المنهج الوصفى لايحقق معطيات تاريخية ذات دلالة كما تحققه دراسة الحضارات القديمة فى منظور شامل . وهكذا بدأ فريق من العلماء كانوا فى الأصل علماء لغة وآثاريين يتجاوزون هذه المرحلة ليصبحوا مؤرخى حضارة ، وكان منهم إدوارد ماير وإرمان وچيمس هنرى برستد . ولعلنا نرصد أنه قبل سفر نصحى إلى مقر دراسته للدكتوراه بسنوات ، وعلى التحديد فى عام ١٩٢٦ ، كان قد ظهر كتاب الأستاذ روستوفتزف المعروف عن « تاريخ الامبراطورية الرومانية الاقتصادى والاجتماعى » ، وكان الجديد فيه استخدامه للمادة الأثرية فى صميم المعالجة التاريخية . ونحن نحسب أن هذا المناخ السائد فى حقل الدراسات القديمة فى الجامعات الأوروبية آنذاك قد حدد اختيار نصحى لموضوع رسالته للدكتوراه التى حقق بها انجازا مهما فى استخدام الآثار فى الاستدلال التاريخى كما سبق أن ذكرنا .

وشُغل الأستاذ منذ عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٤٦ (وهو تاريخ حصوله على كرسى أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة) شغل بتدريس مواد التاريخ اليونانى الرومانى وتاريخ مصر فى عصر البطالمة بقسمى التاريخ والدراسات اليونانية واللاتينية ومعهد الآثار بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، وجامعة فاروق (الاسكندرية) حين كانت هذه فرعا للجامعة الأم فى القاهرة . فإذا ما عرضنا لحصيلة تأليفه التاريخى لهذه الفترة ، ونحينا جانبا مشاركاته فى التأليف الثنائى أو الجماعى أو إصدارات وزارة المعارف (التربية والتعليم) وغيرها من الهيئات ، وجدنا أن الثمرة اليانعة هنا هى كتابه الذى أصبح علَما عليه وهو كتاب « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » . وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى جزئين فى عام ١٩٤٦ ، ثم توالت طبعاته بعد ذلك فى أربعة أجزاء . ومع

كل طبعة جديدة من الكتاب (وقد بلغت الآن تسع طبعات) كان مؤلف الكتاب يعيد النظر فيه فى ضوء الحقائق الجديدة التى كانت الأدلة الأثرية ، خاصة النقوش ووثائق البردى ، ولاتزال تجود بها .

ويعد هذا الكتاب المرجع العمدة فى اللغة العربية عن ذلك العصر ، حيث يتميز بالشمول واستقصاء جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية ، كما يتميز بمواكبة البحث العلمى على مدى نصف القرن تقريبًا حتى أنه فى الفترة الواقعة بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية ، وحيث لم تكن هناك إمكانية متاحة لطبع الكتاب كاملا ، دأب المؤلف على نشر بحوث متفرقة فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس تناول فيها نقاطا كان قد جد فيها جديد . وعلى سبيل ذكر مثال على ما كان المؤلف يضمنه فى ثنايا كتابه من تعليقات مهمة على آراء بعض الباحثين المعاصرين تلك المناقشة المطولة التى عارض فيها رأى الأستاذ ب.م . فريزر الذى أورده فى كتابه المهم « الاسكندرية البطلمية » بشأن تاريخ نقل بطليموس الأول لعاصمة حكمه من منف إلى الاسكندرية ، وذلك فى الطبعة الرابعة من الكتاب .

وإلى جانب كون هذا الكتاب المرجع الجامع الوحيد فى اللغة العربية ، فإن منهجه الاقتصادى والاجتماعى يضفى على موضوعاته حيوية دافقة ، كما أن فيه استمرار لمنهج صاحبه منذ البداية فى استخدام الآثار استخداما رشيدا فى الاستدلال التاريخى .

وعلى صعيد وصل الجمهور المثقف العام بتاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، شارك نصحى فى تأليف موسوعة الحضارة المصرية التى نشرتها وزارة الثقافة ، كما نشرت له الوزارة مؤلفا قيما عن « التعليم فى مصر فى عصر البطالمة » .

وقد امتد نشاط الأستاذ العلمى إلى خارج البلاد . ففى سبتمبر ١٩٥٥ سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليحاضر لفصل دراسى فى جامعة نورث داكوتا ، ولفصل تالٍ فى جامعة سنسيناتى ، كما ألقى محاضرات فى تخصصه فى جامعات آن آربر (ميتشجان) وبرنستون ولكسنجتون (كنتاكى) . وفى الفترة من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣ عمل أستاذا ورئيسا لقسم التاريخ بالجامعة الليبية فى بنغازى وأخرج عندئذ عددا من الدراسات عن تاريخ ليبيا القديم (كاليماخوس القورينى - مدينة قورينى وشقيقاتها . . . إلخ) ، كما أخرج كتابا جامعا فى جزئين عن التاريخ الرومانى حتى نهاية العصر الجمهورى .

هكذا فإن الدكتور إبراهيم نصحى يمثل حقيقة وفعلا ستين عاما من العطاء العلمى الزاخر والرصين . وهو فى مجال الدراسات الاكاديمية قد ترك بصمته على الأصعدة المصرية والعربية والعالمية حيث لايزال حواره العلمى متصلا مع العالم الخارجى فى جامعاته وهيئاته المتخصصة . ومن ناحية ثانية ، فإن ما طبع به الأستاذ الجليل تلاميذه من حيث البحث والاستقصاء الشامل للحقيقة التاريخية ، والصبر على مشاق البحث فى فرع تخصصه الصعب الذى ارتاده لهم ، والحرص على كرامة العالم ، لهُو عطاء من لون آخر كان أروع وأرفع .